الموسم 14

7/ الحلقة 194
الأمكنة المرصّعة

مقدمة

صوت الأستاذ الحدوشي:
"إن الإنسان على مدى رحلته الوئيدة،
لم يكن يعلم أنه يرسم ملامح ثقافة عيش
وينسج فصول حكاية تاريخ، تعكسه أحداث ووقائع وجوده
على أرض ينحت سطحها وينقش معالمها ويكيفها لعيشه.

خلال تجربة الوجود الطويلة على هذه الأرض
ارتسمت آثار تدخل الإنسان في المجال
فمن خياله وعمق رؤيته،
أخذ يعصر شذى الأمكنة
لتنبئه كم هو رائع عزف النغم، شذو المعاني
فصدحت أنفاسه تسجل بكل نبس
أو عذب لحن
أو بديع رقص الماء
حين ينشطر في مجاريه رقراقاً
يرصع صدر زاوية الشيخ "

العنوان
الأمكنة المرصّعة

Jingle

في أول زيارة أحللنا فيها رحلنا بهذا الفضاء البختي الأثير، توهمنا أن يوماً واحداً أو بعض يوم، أو حلقة واحدة تكفينا لإجلاء كل ما تمتلكه هذه البلدة الشجراء التي تبدو عادية..
ثم سرعان ما استوقفتنا أمارات وشهود، وأجداث ولحود، أغرتنا بالقِرى وإطالة المقام بهذا المجال المرحب المضياف.
لقد أوقد بداخلنا نيران فضول زائد، ونهمًا حرك فينا رغبة قوية في اكتشاف المزيد من مجاهله.

هذه البلدة الطيبة بحدودٍ من أغراس الزيتون والرمان، حقا تثير التساؤلات.
لابد أن كل زاوية مفردة هنا، كل جندل صلد، كل جبل صامد، وكل نبت منضود ينطق
شعراً
يخفي سراً
يعبق تاريخاً
يحتاج سرداً.

لقد تعهد هذا المجالَ الخصبَ البختيون الأوائل والحاليون، وتفاعلوا بالإيجاب معه، وضموا بعضه إلى بعض باتساق مشهود فجعلوه عالماً يبتسم شاكراً، ماتحاً من دعوات صادقةٍ لعجائزه، وبُسطائه، مهما تعقدت سبل الحياة فوقه.

اللقاء مع العجوز
- "السلام عليكم
كيف حالك؟
هل أنت بخير؟
هل صحتك بخير؟
- أعاني من آلام الركبتين
بسبب كثرة الأشغال [الفرن]
- الفرن وكثرة الأشغال جعلك تتعبين
- هذا ما كتبه ربي ولله الحمد
- الحمد لله على كل حال
- فليحجبكم الله
- آمين
حفظكم الله
حماكم الله من كل سوء
- آمين
-
الروح من أمر ربي
نحن مسلمون حتى يتوفانا الله

الى اللقاء
- حفظكم الله"

هذا الملاذ الأخاذ الذي شهد تغيرات وهجرات شتى، يستحق أن يكون وجهة لكل من أراد أن يستقطع أوقاتًا هادئة من زمن مسلسل حياة المتاعب وضجيج العالم.

إنه فضاء ممتع يمنح فرصة ثمينة لنفض الهموم واقتراح الحلول وإسعاد الزائرين.
وهو مجال رحب للمتعة والتنزه وممارسة شتى الرياضات الجبلية والسياحة الثقافية والتضامنية.
وهو أيضا فرصة للمتح من فيض أخلاق ساكنة أم البخت النبيلة ومن مهابة جمال فضاءاتها وعاداتها وتقاليدها.

ومهما كانت الحياة في الجبال صعبة وشاقة، فهي بالنسبة للزائرين راحة للوجدان واستجمام وروقان.

ولا غرابة أن يحظى هذا المجال البختي بمزايا طبيعية وثقافية ملائمة لقيام أنشطة سياحية مهمة.
إنه مجال جذَّاب وغني بتنوع مظاهره التضاريسية، ووفرة موارده المائية، وتنوع غطائه النباتي، واعتدال مناخه، وكثافة غاباته الممتدة عبر مرتفعاته ومحيطاته.
عناصر جاذبة للسياح، يمكن استثمارها لممارسة الرياضات الجبلية المختلفة عبر مساراته ومداراته السياحية.

المفارقة، أن السواح وعشاق الطبيعة والرحلات لم يفطنوا بعد بما فيه الكفاية، إلى ما تحظى به منطقة أيت أم البخت، وديرُها بزاوية الشيخ والأرياف العالية المحيطة بها.

تشهد المنطقة في الآونة الأخيرة إنشاء بنيات تحتية تتجلى في المآوي الجبلية الريفية لاستقبال السياح، وإحداث فضاءات عائلية، ووحدات للاستراحة، والإطعام على جنبات الطريق الرئيسية.

استجواب السيد حوسى يعقوبي / صاحب مآوى
- "المشكل الرئيسي هو كون المنطقة غير معروفة.
فالناس الذين يهتمون بالسياحة الجبلية
يعرفون بوگنداز مثلا، القريب من هنا،
ويعرفون أماكن بالأطلس الكبير والمتوسط كآيت بوكماز وتسّاوت وغيرها
بينما هنا غير معروف
فعلى سبيل المثال، عندما تريد الذهاب إلى نواحي مگُون خلال الصيف في شهر يوليوز
فالشمس تلفحك من فوق، ولا شيء يحجب عنك لفحها،

أما هنا في الأطلس المتوسط،
فهناك مناطق تحظى بالظل وبالمياه لكنها غير معروفة
فعلى سبيل المثال حينما تذهب من تونفيت إلى أغبالة
فثمة مناطق لها ماضي تاريخي، لكنها مهملة من ناحية السياحة.

- كل ولاتخف..
- إنه ساخن
- ساخن بمعنى الكلمة، هو ناضج

- ألا يأتي السواح إلى هذا المكان؟
- هناك مشاكل،
فاقتصاد السياحة بصفة عامة اقتصاد استثنائي،
حتى لا نكذب على أنفسنا
فاقتصاد السياحة يعتبر اقتصاداً عديم الأصل، لماذا؟
فمثلاً خلال أزمة كورونا هذه،
يعتقد بعض الناس في آيت بوگماز ومرزوگة مثلا،
أو شاب ابن فلاح، أو مربي ماشية
أن السياحة الجبلية فرصة للربح.
- هذا العمل هو الأفضل.
- يعتقد أنه النشاط الأفضل،
في حين أنه عندما يتوقف، يتوقف كل شيء،
ويبقى عاطلا بلا صنعة ولا أي شيء،
ومن ناحية أخرى فالمشكل يكمن في اتكال الناس على السياحة كبديل،
في حين أنه بإمكانك أن تمارس النشاط السياحي
شريطة أن تبقى ممارسا لعملك الرئيسي.
وهذه هي الفلسفة التي نعمل بها نحن
فأنا ليست لدي غرف كثيرة،
ولا أستطيع أن أمتلك البغال مثلا،
لأجل تنقل المتجولين،
فأعمد إلى كراء البغل من عند جاري،
وهكذا مثلا إذا احتجنا إلى البيض أو الدجاج البلدي
فإننا نشتريه من عند الجيران.
وبذلك يصبح المشروع،
وبالرغم من صغره، تعاونيا يُشغِّل أشخاصا آخرين.
المشكل المطروح يتعلق بالتكوين في المجال السياحي،

بالنسبة لي مثلا فحبذا لو أتمكن من مساعدة أسرة
وحيث أنني لا أتوفر على غرف كافية
فسنوزع الضيوف بيننا.
لكن المشكل في افتقارهم إلى التكوين في اللغة وفي كثير من الأمور
كالاستقبال مثلا والصحة والنظافة وغير ذلك
إضافة إلى القانون الذي لا يسمح بتسليم زائريك إلى أي محل كيفما كان
ولهذا فلربما الحل يكمن في مساعدة الناس من ناحية التكوين والتجهيز
حتى نستطيع توزيع أعداد الوافدين
عوض أن يذهبوا لمكان واحد فقط.
والظاهرة الإيجابية التي ظهرت حاليا، بما لديها من مستقبل
هي أن المغاربة من سكان المدن، من الفئات المتوسطة ومن الشباب أمثالكم،
يتوقون إلى معرفة مثل هذه المناطق التي لا يعرفون عنها شيئا.
- يسافرون
- يسافرون إلى الداخل، لأنهم كانوا في الأول يخافون من الجبال،
بينما في الوقت الحالي، فلله الحمد،
الناس تأتي من الدار البيضاء ومن الرباط،
فيصرحون عند جلوسهم مع أختي منى،
أن جداتهم كن يفعلن مثل هذه الأشياء،
فأرد عليهم أن هذا أمر جيد."

العديد من المواقع السياحية تزخر بها هذه الواحة الجبلية المحفورة في صخور تهب مصادر الحياة بسخاوة متناهية .

نبع شلشل هنا، يجري ماؤه فينسج قطيفة زاهية يتدلى خميلها البهي أو ينساب مجرورا مثل فستان العرائس.

وشلال هناك، تنهمر مياهه أقراطا فوق معازفَ صخرية لتشنف مسامع مُولعي الطبيعة طربًا ولحنا شجيا.

ذخائر كهذه التي تحظى بها أم البخت الفاتنة، من صميم أهداف فئات عريضة من السواح، هي اليوم في ازدياد.
وهي لذلك قادرة على استقطاب المستثمرين وإغرائهم بإقامة مشاريع سياحية توفر مناصب شغل عديدة، ورواجًا اقتصاديًا مهما قادرا على أن يغذي مناخا سوسيو ثقافيا سيساهم في الارتقاء بهذا المجال الحيوي الهامشي.

إحدى المبادرات الجادة في باب التنشيط السياحي، جسدتها محاولةٌ ناجحة في استيعاب بعض مؤهلات هذه الأعجوبة الطبيعية، وجعل مُقدّراتِها وجمالِها يتجدد باستمرار في أعين الساكنة وزوارهم.

منتزه تامدة السياحي، منشأة سياحية بامتياز، عبرها دبَّر القائمون عليها مياه ينبوعِها الغامر، فصاغوا منها جنة خضراء وارفة الظلال، تسر الناظرين.
منتزه يُمكِّن السائحَ من الانخراط في لحظات تأملٍ منعشة للروح، ومرسِّخة لثقافة الذوق الجمالي الذي يُشعِر بالقيمة الجمالية للأشياء.

تامدة، التي تعني باللغة الأمازيغية المستنقع المائي، منتزه يقع يسار الطريق الرئيسية العابرة لحاضرة زاوية الشيخ شمالا، في اتجاه مدينة خنيفرة.
هذا المشروع الذي وضع لبناتِه الأولى المستعمرُ الفرنسي، قناص المواقع الاستراتيجية والنافعة، مشروعٌ أنشئ بمجرى عين تامدة الدائمة الجريان، المُتزوِّدة من مياه الأمطار والثلوج.
هذا المقصد السياحي الشهير بمنطقته، أصبحت له قيمة سياحية وثقافية واجتماعية، وهو ليس وجهة مفضلة للساكنة والجوار فحسب، بل إنه فرصة تواصلية اجتماعية، كذلك، بين البعيد والقريب بما تُتيحه من إمكانية إرساء أواصر التواد والتراحم فيما بين قبائل هذا المجال التادلوي، وما بين سواهم من المرتادين.
بادرة بسيطة متواضعة حققت الكثير، إذن.
تمت تهيئة هذا المنتزه، وأُنجزت على ضفافه مجالات خضراء، ونواعير، ونوافير، وشلالات اصطناعية، وممرات للمشي وكراسي لراحة الزائرين.
وعلى جنبات الجدول السيالِ وسطَه، أُقيمت مقاهي ومطاعم تحت ظلال أشجار التين وأصناف أخرى تفوح عطرًا، وتفوق الجلسة تحتها الذهب سعرًا.

إلى غاية الماضي القريب، كان لموقع عين تامدة أثر روحاني اعتقادي مرتبط بمكانة الماء في نفوس الأهالي، وبتقديسهم لمنابعه
إعتقاد يستوجب من زائريها واجب تقديم حق الزيارة لها،
تؤكد بعض الشهادات ان صخرةً كانت عند منبع العين توقد فيها الشموع، وتوضع بها الصدقات تعبيرا عن قدسية هذا المنبع المائي، وطلبا لبركته وعطائه، وطلب التسليم منه.

فكرة عبقرية بحق، عكست استثمار الأمكنة، والمؤهلات الطبيعية، والماء خاصة، في جوانب عديدة من تدبير العيش وتحقيق تنميات مستدامة.

استجواب السيدعبد الفتاح باودن / مندوب السياحة بإقليم بني ملال

- "المنطقة تعرف جاذبية سياحية كبيرة جداً.

ما ينقص هذه المنطقة الآن هو الرفع من سقف الرؤية بالنسبة للوجهة السياحية لزاوية الشيخ.
اليوم وبالرغم من مبادرات القطاع الثالث مع المجهود التنموي المبذول من طرف الفاعلين العموميين،
ما زلنا في انتظار المزيد من المبادرات الخاصة
والتي من شأنها تعزيز العرض السياحي والتجاري للمنطقة
ليرتقي إلى مستوى العرض الغير التجاري للمنطقة.
نحن نتوفر على مناظر وعلى مشاهد ذات قيمة سياحية عالية،
لكن ما زلنا في أمس الحاجة إلى المزيد من الإستثمارات
من أجل تقوية بنية الإيواء السياحي على مستوى الإقليم
أو تنمية مجموعة من الأنشطة السياحية للإقليم.
هناك خصاص على مستوى البنيات والتجهيزات السياحية
ولكن أعتقد أننا اليوم والحمد لله
بفضل الإستثمار العمومي وبفضل مجموعة من الشراكات
هناك مشاريع بصدد الإنجاز وسترى النور قريبا.
أعتقد أن هذا الإستثمار العمومي سيساهم في سد هذا الخصاص الملحوظ
على مستوى البنيات والتجهيزات السياحية .
نحن نراهن على انخراط الفاعل الخاص
من أجل إنجاز مجموعة من المشاريع
التي ستساهم في تعزيز العرض السياحي لهذه الجهة"

هذه العين الغزيرة التي كان لها في الماضي اليد الطولى في إنماء روائع هذا المنتزه وازدهار محيطه، كانت وافرة الصبيب، عميمة النفع، لكنها اليوم أمست مهددة بعواقب التغيرات المناخية التي يعيشها العالم، وبغياب أي مبادرات صيانة من شأنها حمايتها من آفة ترديها الحالي، صونا لها من أن تنضاف إلى قائمة ضحايا هذه الآفات من مثيلاتها في أماكن أخرى.

الحدوشي بطريقة شاعرية:
"على مهادها وأعاليها كان يفتل ضفائر إكليل زيتون يوشح جبينها الوهاج من فيض نورها"

فـــــــــاصل

خلال تقصياتنا بمجرى عين تامدة، أدركنا أن تدفقها في الماضي كان أكثر غزارة مما هو عليه اليوم.
وقد لاحظنا انهيارًا أرضيًا فوق منبعها الرئيسي، وجفافًا في عيون ثانوية كانت تحفه.
وللوقوف على حقيقة هذه المعضلة الطارئة، رافقنا السيد بناصر، إبن المنطقة وأحد أعضاء مجموعة الإستغوار والإستكشاف والرحلات الجبلية، ليحدثنا عن هذا المصدر المائي الهام وعن الإكراهات التي تواجهه.

حوار مع السيد بناصر اكلاو
مجموعة الإستغوار والإستكشاف والرحلات الجبلية
عن الخزان وعن جفاف العيون

- "يا سيدي الحسين، عندما دخل المستعمر الفرنسي إلى هذه المنطقة،
اختار هذا الموقع، نظراً لغناه بهذه الموارد المائية
وتوفره على العيون في كل اتجاه،
والتي من بينها هذه العين التي كانت لا تنضب،
لا في الصيف ولا في الشتاء
وكان صبيبها ما شاء الله، مُهماً.
- بمعنى أنه نقص الآن؟
- لقد جف الآن،
ففي زمن ماض، كانوا يتزودون منها بالماء لأجل دورهم وإداراتهم
ولتزويد معمل الدوم الذي شيدوه بحي "موطالب"
وكانت هذه العين لا تجف مدى السنة كلها.
وكانت هناك عقائد مرتبطة بهذه العين،
فكان الناس يأتون لزيارتها،
وهنا الدليل على ذلك،
فبتلك الثقوب، كان الناس يضعون بعض النقود،
وفي أماكن منها كان الناس يشعلون الشموع.
- كانت نوعا من الطقوس
- نعم، نوع من طقوس قديمة،
كنا نشاهدها في صغرنا،
وكنا نجد داخلها عشرين سنتيماً أو عشرة سنتيمات وشموع مضاءة.
- هل اختفت هذه الأشياء؟
- بالفعل، فالناس في الوقت الحالي بدأت تعيش مرحلة الوعي.

بنى المستعمر خلال تلك الفترة هذه الساقية.
- هل هي هذه؟
- نعم، هذه التي نحن فوقها الآن
- هل كان الماء يأتي من هنا؟
- نعم، وكان قد بنى صهريجاً هنا
لاستقبال المياه التي تسلك هذه الساقية عندما تفيض مياهه،
لسقي بساتينهم المعروفة هنا حينها،
وكان بها قليل من أشجار الزيتون والرمان
وتستعمل كذلك في الفلاحة وفي زراعات أخرى
والدليل على وجود هذا الخزان
هو هذا السقف هنا
وها هي بلاطته المدعومة بالقضبان الحديدية
- يبدو كصهريج
- هو صهريج لتخزين المياه، لأنهم في تلك الأثناء لم يأتوا بعد بالمياه من بوگنداز،
وكان الناس يتزودون من العيون، وخاصة من عين تامدة في الأسفل
وسكان حي موطاليب يتزودون صهريج قريب من مصنع الدوم
ويظل الماء دائم الجريان.
- هل هذه المياه التي نسمع صوتها هي نفسها التي تجري في هذا الإتجاه؟
- رجوعا إلى هذه المنطقة دائما،
فقد شهدت منذ سنتين وقوع انهيار فوق هذه العين،
ولعل الأحجار قد غيرت مجرى مياهها،
والدليل هو هذا الغار أمامنا الذي لا يزال مكشوفا.
ها هو ذا يا سيدي الحسين
- هل من هنا يصدر الصوت؟
- هنا مصدر صوت هذا النهر الباطني الذي يسيل تحت الأرض الآن.
اسمع..
- إنه صوت كثير
- إنه واد جار،
اسمع..
- هو هذا النازل إلى الأسفل
- نعلم أن هذا الوادي يسيل في اتجاه العين،
لكن هذا الصوت يدل على كمية كبيرة من المياه،
فلربما يتجه قسط منها إلى اتجاه آخر.
- ربما هو يهرب إلى اتجاه ما.
- نعم، حيث إن هذا الصوت كبير،

ولهذا فعندما أرادوا ردم هذا الغار،
استشاروا مع وكالة الحوض المائي لأم الربيع،
فنصحوهم بألا يمسوه خشية أن تغير المياه اتجاهها إلى وجهة أخرى
فتحدث كارثة بهذه العين لتامدة ويجف ماؤها.

هروب هذه المياه راجع ربما إلى عامل نشك فيه،
وهو هذا المكان الذي لم يكُن به هذا الشجر من الأوكاليبتوس.
وهو النوع الذي يؤكد المختصون أنه يُغرس في الأرض الندية،
أو قرب البئر التي تفيض بلا توقف
لأنه يستهلك كميات كبيرة من المياه
إضافة إلى كون جذورها تتجه في اتجاه عمودي،
وليس في اتجاه أفقي كأشجار الزيتون وغيرها،
وهي تبحث عن أمكنة تواجد الماء،
وها هو الدليل، هل رأيت جذور هذه الأشجار هناك؟
- هذه هي جذورها؟
- أنظر مكان تلك الشجرة ولاحظ جذورها إلى أين وصلت؟
وهي مازالت ممتدة نحو الأعماق

ها هي الجذور، إنها آتية من هنا
وسنتبع اتجاهها،
فمن هذا المكان تخرج المياه من هنا خلال فصل الشتاء،
هذه فقط، أجزاء الشجر في المجرى، هل رأيته؟
- هل يصبح الماء كثيرا؟
- نعم يخرج ماء كثير، ويفيض هذا المكان،
وهذا مجراه،
إنه مجرى الماء، إنه يمتد من هنا إلى هناك،
ويسيل إلى أن يتجمع ويختلط بمياه عين أحْلَّال هذه،
وها هو مسلكه،
والكل يجري في اتجاه تامدة،
فهذه المنطقة كلها، في وقت الشتاء، تتدفق عيونا،
وهذا دليل على أن جذوع هذا الشجر تصل إلى الفرشاة المائية،
مما يعني أنه خطير، وقد يهدد استمرارية هذه العين."

فوق ربوة غير بعيدة عن منخفض تامدة، عمد المحتل الفرنسي إلى استثمار هذا المصدر المائي الغدق على صعيد آخر متعلق بمنشأة عسكرية صناعية.

ومنها يتزود بالمياه الضرورية في دفع عجلة إنتاجاته الحربية.
منشأة استعمارية أخرى في ميدان الصناعة، أنشأها المحتل لتوطيد أركانه وتعزيز اقتصاداته.
شيدها المستعمر بداية الأربعينيات
لكن نفعها تعداه إلى الأُجَراء من ساكنة أم البخت، وبعض الوافدين من أماكن نائية.
إنها معمل الدوم، بمركز زاوية الشيخ

أدت هذه المنشأة دورًا خاصاً حينا من الدهر بهذا المجال، متجليا في سبق صناعي، وتشغيل نوعي لم يسبق له مثيل في تاريخ البختيين.

حوار مع بناصر حول معمل الدوم

- "هذا هو معمل الدوم
هذه سكنى العزاب من عمال ذلك المعمل،
عبارة عن غرفة واحدة فقط،
وهي على حاله منذ ذلك العهد
سوى هذه، فهي لسيدة تقطن بها،
وأكثرها مهجور،
لأن تلك التي كانت تشغلها العائلات أغلقت
وبنى قاطنوها دورهم في أماكن أخرى.

هذا هو المعمل،
وهو يشْغَل هذه المساحة كلها في ذلك الوقت
حيث يقومون بطحن الدوم هنالك،
وهنا كانوا يستغلونه لنشره ليتم طحنه،
وكان هنالك عمال يخرجونه لينشروه هنا
ثم يعيدون تقليبه على وجهه الآخر حتى يجف
فيتم حزم قسط منه مباشرة، بينما يحول قسط آخر منه إلى حبال.
لندخل الآن إلى المكبس"

شغَّل هذا المشروع يداً عاملة جربت، ولأول مرةٍ، حرفة مُمكننة، غير اللاتي امتهنها منذ عهود آباؤهم الأولون.

المنشأة هذه توقفت هي الأخرى، فغدت مهملة، مطويةٌ صفحتُها، دون أن يُفكَّر في تهيئتها حتى تواصل إسهامها في الإنتاج، وفي امتصاص العطالة وآفاتها، بما ستلبيه من حاجة الأجيال الحالية إلى الاشتغال.

حوار بناصر

- "لا زال متينا
سبحان الله لا زال مقاوما،
أنظر
حتى سقفه بُني على شكل نصف دائري
هنا يوجد ذلك المكبس،
ومن هنا كانوا يعدون تلك الأشياء،
- لا زال الحبل السلكي في مكانه
- بالفعل."

استجواب الحدوشي

-"مصنع الحلفاء أو (ماكينة الدوم)،
هذين الإسمين يطلقان على وحدة إنتاجية
أشرفت عليها عائلة فرنسية تحت إسم شركة مؤسسة آنذاك
واستقطبت للخدمة به عناصر كثيرة من مجال "نتيفة"
أي مجال "بزو" و "فم الجمعة".
ولا نجد تفسيرا لذلك،
إلا أن معملاً سابقاً له قد بُني في تلك المنطقة.
إذن هم كانوا على عجلة من أمرهم،
لم يكن لهم لينتظروا تعليم هذه الحرفة لساكنة المنطقة،
خاصة أن ذِروة عمل هذا المصنع أو هذا المعمل كانت متزامنة مع الحرب العالمية الثانية.
هذه المادة كانت توظف على ما قيل
في صناعة الزي العسكري للجنود الفرنسيين،
أسِرّتهم، محافظهم العسكرية وأيضا الحبال لرسو السفن."

حوار مع بناصر حول صهاريج التلوين

- "سنذهب لرؤية أحواض صباغة الحلفاء في ذلك الوقت
هنا بعض الأحواض، وقد ملأها الناس بالردم وغيره
- كانت عميقة
- نعم، وها نحن سنراها
وهذه هي بكاملها
كانت متقابلة، والعدد الموجود هنا يوجد هنا أيضا.

- ألا يوجد أي شيء في الوسط
- لا شيء يوجد في الوسط، هي بالجنبات فقط
وهذه الأشياء مهملة في الوقت الحالي،
وحتى الناس لا تحافظ على البيئة
فكل من أراد التخلص من النفايات يأتي بها إلى هذا المكان!
فعلى الإنسان أن يكون واعياً بتصرفه هذا.
وهنا كانوا يصبغون الحلفاء الخضراء باللون الأسود
وكان يقال بأنهم يستعملون تلك الحلفاء في مقاعد السيارات،
وفي صناعة الألبسة العسكرية،
وفي عدة استعمالات
منها الأفرشة التي يملؤونها بها في ذلك الوقت
لأنها صحية خلافا لما هو موجود حاليا.
- هي طبيعية
- هي مادة طبيعية."

استجواب الحدوشي

- " عندما سيقام معمل الدوم بمجال زاوية الشيخ،
سيقدم لنا نموذجاً جديداً على المستوى الإجتماعي والإقتصادي
وهو ظهور مفهوم الأجير.
حيث إن العمل في الأرض كان يرتبط دائما بالنصيب،
أي الخمس أو الربع حسب الأعراف المنظمة.
هذا الأجير كان يتقاضى أجرة إما بشكل أسبوعي أو نصف شهري ،
لكن ماذا سيحدث عند توقف العمل بهذا المصنع؟
وإن كانت المحاولة لاستدامة العمل به حتى بعد الإستقلال،
لكن توقفه سيترك ويُخَلّف عمالا
فقدوا عملهم لا يستطيعون الإندماج في النشاط الزراعي
الذي تعرفه المنطقة، فتحولوا إلى مياومين وحمّالين
والأكثر من ذلك على المستوى الاجتماعي
كانوا يقيمون في منازل بنيت بجوار المعمل،
لكنها تحولت إلى براريك
وبعضهم إحتل أجزاءاً من هذا المصنع،
لتقدم للبلدة نموذجا جديداً عمرانيا واجتماعيا"

حوار مع حوسا فرغاس وموحا شكّوش

- "نظرا لقِدم هذا المعمل،
وكون أغلبية عماله متوفين بسبب عامل السن،
ولتوقف المعمل عن الاشتغال،
استضفنا شخصين شهدا فترة اشتغاله
ليدليا لنا عن شهادتهما حول ما شهداه فترة اشتغاله.
أحدهما، السيد حوسا فرغاس
الذي التجأ بعد إغلاق المعمل إلى امتهان حرفة صنع المكانس.
والسيد موحا شكوش
الذي اشتغل بدوره بهذا المعمل في صنع الحبال
وكانت حبالاً من النوع الممتاز .
- كيف كان الإشتغال هنا فترة عملك هنا؟
- كانت الشاحنة تأتي بالدوم الأخضر ثم يتم طحنه.
- هل اشتغلت في هذه العملية حينها؟
- أجل، يتم طحنه ثم إخراجه ونشره حتى يجف،
فينقله العمال لنقوم بنقله نحن ونحوله إلى حبال
نضعها في علبة من عشرة حبال،
ثم نخرجه يجف مرة أخرى حتى ييبس،
فندخله مرة ثانية إلى حيث المكبس ليحوله إلى رزمات،
فتأتي شاحنة من الدار البيضاء لشحنه ونقله.
- هل يُنقل إلى الخارج؟ أم ماذا؟
- لا، ينقلونه إلى الدار البيضاء،
ولا ندري إلى أين يذهبون به،
هل إلى الخارج أم أنهم يصنعون منه أشياء بالدار البيضاء.
- كم كان العدد التقريبي لعمال المصنع في ذلك الحين؟
- كانوا في مجموعتين
- كم كان عددهم؟
- كانوا يشتغلون على مدار أربع وعشرين ساعة ليل نهار
- تقريبا كانوا 120 فرداً من الرجال والنساء والأطفال والفتيات، وجميعهم يشتغل.
- كلهم يشتغلون؟
- هؤلاء فقط فاتلو الحبال،
ينضاف إليهم الناشرون والعاملون في الآلة، وفي الطحن
إلى جانب المشتغلين بالمكبس،
كانوا كثراً بالنظر إلى المعمل بكامله

- ماذا تصنع يا سيد حوسا؟
- كما ترى يا سيدي، أنا أقوم بالعمل لأجل لقمة العيش.
- لأجل كسرة الخبز.. ليكن الله في عونك.
- آمين
- ما نوع هذا العمل الذي تقوم به؟
- هذه أوراق الدّوم التي آتي بها في حالتها العادية ثم أقوم بتشريحها.
- هل تأتون بالدوم من الجبال؟
- نأتي به أينما وجدناه في السفوح أو في الجبال، حيثما وُجد.
- هو موجود
- هو متوفر، آتي به، وأقوم بتشريحه وتجفيفه قبل أن استعمله.
وهذه العصي، آتي بها أيضا فأقشرها ثم استعملها،
ولا استعملها وهي خضراء
- تتركها إلى أن تيبس ثم تستخدمها؟
- حتى تيبس، ولا أستخدمها وهي طرية
- هذا أفضل
- بالفعل
- هل أنت الوحيد الذي يزاول هذه الحرفة أم أن هناك آخرين؟
- هناك من يصنعها بطريقة عادية وليس بهذا الشكل الذي أقوم به أنا.
- هل كنت تشتغل بهذا المصنع؟
- اشتغلت به لمدة سبع سنوات
- سبع سنوات! وماذا كنت تقوم به؟
- كنت اشتغل ضمن فاتلي الحبال
- كنت تفتل الحبال
- اشتغلت في ثني الحبال
- وماذا عن هذه الحرفة؟ هل تعينك قليلا على معيشتك؟
- اسأل الله البركة،
من لم يقنع بالقليل لن يقنع بالكثير
- بكم تبيع الواحدة من هذه المكانس؟
- هذه ابيعها باثني عشر درهماً بالجملة
- وكم تكلفك من الوقت؟
- ها أنت ترى الذي أقوم به الآن
- يوم واحد أو يومان؟
- إذا واصلت العمل خلال اليوم بكامله، أنتج منها عشرين واحدة.

سنذهب الآن إلى حيث المكبس رفقتك السيد حوسا والسيد الحسين،

نريد أن تعطينا معلومات حول الفترة التي كنت تقوم فيها بفتل الحبال،
ومن أين كانت تأتي؟
لترينا المراحل التي كانت تمر منها وكيف يتم ضغطها هنا."

لقد كان هذا المشروع قطرة الغيث الأولى، لكن مسيرته توقفت أواخر الستينيات ، فنُسيت معالمه من غير أن تستثمر، سياحيا، على الأقل.

حوار مع حوسا فرغاس وموحا شكّوش

ها نحن داخل مكان المكبس يا سيد حوسا، وها هي آلة الكبس
- كم هو وزن هذه الحزمة تقريبا؟
- ثمانون كيلوغراماً
- ثقلها ثمانون كيلوغراما!؟
- هل تقصد ثقل الحبل؟
- لا أقصد الرزمة
- وزن الرزمة ثمانون كيلوغراماً
- وهذا هو السلك الذي يستعمل في حزمها.
- يستعملون سلكين اثنين لربطها
- قيل لنا إنهم كانوا يصنعون منها الملابس العسكرية
- هذا ما سمعناه
- الملابس العسكرية
- بالفعل، وهذا ماكنا نسمعه
- هل قل نبت الدوم في الوقت الراهن؟
- الدوم لم يعد موجوداً
- الدوم موجود لكن البهائم تلتهمه بشراهة
- حتى الناس قضوا عليه بحرث الأراضي فتم محوه تماماً
- بالفعل هذه هي الحقيقة
لقد طوعوا الأرض
- تماما
- كنتَ في السابق تمضي إلى تامدة فتأتي منه بكميات..
- في الوقت الحالي، الدوم يتواجد فقط بالأماكن التي لا يتم حرثها فحسب
- بتيمديرين، لا زال موجودا بكثرة
هو موجود
هو مكان لا يُحرث
- بتيمديرين، هو موجود بالهوامش وليس في وسط الفدان.
لا حديث عن وجوده بالفدان

- (بوكزضيم) سُمي كذلك لوجود الدوم به، وبكثرة
هو ممتلئ بالدوم
وبمنطقة (أخبّاز)، كذلك
- لم يعد الناس يستغلون كما في الماضي."

هذا المجال المليء بفرص النماء، بحاجة إلى تثمين وعناية، وإلى تشجيع الاستثمار حتى لا يبقى مجرد فضاء صخري قاسي أجدب، عديم الفائدة فيرتد منبوذا مهجورًا.

فـــــــاصل

الحدوشي بطريقة شاعرية:
"هي التي خبأت بكل كبرياء
في صندوق أسرارها
من عزيز أسمائها :
"تيزغى"، "أم الرمان"، "زاوية الفيض"، "أم البخت"
هي التي تحلت بجميل الدرر
أسماء تخلدها
متوهجة
عروسا من عرائس الأطلس
لتي تزف له على مدى الزمان
في حللها البهية
وأريجها الأخاذ
وطيفها الساحر
يحاكي مع كل ربيع
سمفونية الحياة تتدفق
من فيض عيونها ومجاريها "

هذه البلدات البختية تجيد إرباك المولعين بالبحث عن مواطن الجمال الطبيعي، والغنى الثقافي.
وما فتئت تحكي قصة صمود وانتصار على قساوة الظروف ووعورة موقعها الجغرافي.

لقد وقفنا على أماكن طبيعية عديدة في غاية الروعة والجمال، وشاهدنا معالم تاريخيةً شاهدة على مراحل من تاريخ الإنسان البختي في علاقته مع هذا المجال من الجبال والفيافي.

عناصر طبيعية شكلتها المنابع، وأشكال تضاريسية، وغطاء نباتي بحالة جيدة.
ثم معالم وأنقاض سيئة الحال في الغالب :
هي مقومات استثمرها، واجتهد في تخليدها من مروا من هنا، نحتوا لها أسماءً ذات دلالة رمزية،
وقد استمر ذكرها، وذكرى أصحابها عبر طوپونيميات ضمنت لهم الخلود بعد أن تواروا عن الوجود.
لكن بعض هذه الأسماء التي أخرجت أمكنة المجال من حال النكرة إلى حال المعرفة، ومن حال الخوف والوحشية، إلى حال الألفة والحميمية؛ لم تعد كذلك.
أو هكذا يبدو لنا، نحن على الأقل.

ءيغرم ن تشاكت، أو قصر البرطقيز؛ نموذج من هذه المواقع الجمّة التي تدل عليها أسماء ذات دلالة رمزية تحيل على أدوارها، ووظائفها داخل سياقات تاريخية معينة.

قلعة للتحصن والمراقبة، شُيدت فوق جرف جنوبي مطل على زاوية الشيخ
استغله قدماء أم البخت، فاتخذوا منه برجاً لمراقبة مجالاتهم الحيوية بالسفوح،
ولرصد مخاطر الهجوم من طرف الكيانات المعادية والخصوم.
تشاكت، أو أشاكوك في اللغة الأمازيغية، يطلق على الشعر الطويل، لكن دلالته المجازية هنا، تحيل على ارتفاع هذا الحصن، وعلاقته بشلال بوگنداز، على مقربة منه، وبالمياه المنهمرة من أعلاه في شكل شعر المرأة الطويل، أو أهداب ناصية الفرس المتدلية.

هذا الموقع الأثري، نموذج من معالم عديدة صادفناها بمجال أيت أم البخت، غالبيتها تئن في صمت، وتنشد الاهتمام بها، لعل الرحال تُشد إليها كمزارات للسياح، والمهتمين، حتى تسترد حقها في الحياة، عوض أن تبقى مآوي لسكنى البوم، وجحورا للحيات.

أنگال، أو مكان أداء القسم بالأمازيغية، مركز جبلي تاريخي اجتماعي عريق بالجنوب الشرقي لأم البخت، على علو يصل 1225متراً فوق سطح البحر،
مر به الشريف الإدريسي خلال القرن الثاني عشر للميلاد، وسماه بدار المرابطين، نسبة إلى الصلحاء والحكماء الذين يتولون به مهمة فض النزاعات بين الخصوم.
إنه نموذج آخر لبقايا آثار قرى المنطقة العريقة التي تنتظر دورها في نفض الغبار عن ذاكرتها التاريخية الضاربة في القدم.
فماذا لو كفت سهام الشك في قيمتها الكبيرة عن محاولة فقدها الأنفاس؟
ماذا لو تم إنعاشها بترميم أنقاضها ومد الطريق إليها وفتح المجال للاستثمار داخلها، حتى تصبح قطباً في السياحة الجبلية والثقافية مساهما في تنشيط الحركة الاقتصادية بمنطقتها؟

ليس الأمر كله بهذا السوء حتى يترك هذا الربع الخالد لحاله، فثمة مشاريع سياحية معلقة هائلة من إعداد المسؤولين الغيورين على المنطقة، فهل سيرفع التحدي حتى ترى النور وتلبي انتظارات المطالبين بالعدالة المجالية بهذا الإقليم التالد الأصيل.

استجواب السيدعبد الفتاح باودن / المندوب الإقليمي للسياحة ببني ملال

- "في إطار المجهود التنموي المبذول من أجل الرفع من الجاذبية السياحية للمنطقة،
كان هناك مشروع مهيكل كبير
وهو مشروع المحطة الخضراء،
والذي كان مبرمجاً على مستوى سد أحمد الحنصالي.
هذا المشروع كان يهدف إلى تعزيز الطاقة الإيوائية للمنطقة
وليس هذا فقط، بل كان الهدف منه
هو إنعاش الأنشطة الترفيهية من خلال الرياضات المائية.
هذا المشروع كان يسمى المحطة الخضراء
لأنه كان يحترم معايير الإستدامة،
سواء فيما يتعلق باقتصاد الماء والطاقة
أو في الإندماج المشهدي أو في تدبير النفايات
وغيرها من المواضيع البيئية المهمة.
أكيد أن هذا المشروع لو تم إنجازه لقدم قيمة مضافة للمنطقة
وربما يدخل في منافسة كبيرة مع مجموعة من المواقع ذات الأهمية السياحية المشهورة بالجهة
كبحيرة (بين الويدان) التي تشهد زخماً على مستوى الأنشطة والرواج السياحي.
أعتقد أن مثل هذا المشروع
من شأنه أن يرقى بالنشاط السياحي على مستوى جهة بني ملال خنيفرة
وعلى مستوى منطقة زاوية الشيخ
ليجعل منها قطب جذب حقيقي بالنسبة للأنشطة السياحية
وللراغبين في الإستجمام في الفضاءات الطبيعية والفضاءات المفتوحة."

ومهما كان سؤال التنمية محرجًا وصعباً، فإن الإرادة وحدها كفيلة بجعل هذا المجال الذي يحظى بحظوظ كثيرة، مركز إشعاع ونهضة اقتصادية في ازدهار البلاد عوض أن يبقى خاملا منسيا.

- "السلام عليكم
- وعليكم السلام
- ماذا ستشرب يا سيدي؟
- أريد كأس عصير ليمون شرط أن يكون طبيعياً

- حاضر، مرحباً"

فتامدة، هذا المتنزه اللافت الذي يجلب بهاؤه إليه الكثير من الزوار، مثال على الرغبة الصادقة في منح الأمكنة الخلابة حظها من الذكر ومن الاهتمام اللازم.
فباستثمارات بسيطة، جذبت إليها الأنظار، واستطاعت أن تلبي رغبات المقبلين على أجوائه الفريدة التي تجعل السائح يشعر داخلها بالراحة والإطمئنان.
لأجل تحقيق بعض أماني هذه الأمكنة المرصعة، إنبرى ثلة من شباب المنطقة الغيورين لتحريك المياه الراكدة في مجال استثمار حظوظ هذه البلدات التي لا يليق بها الركود، ولا التسويف في تنميتها والنهوض بمستقبلها.

استجواب السيد محمد مرخي / صاحب مشروع مطعم

- "كيف فكرت في إقامة هذا المشروع في البداية؟
هل شجعك أحدهم؟
- بطبيعة الحال فهذه المنطقة كانت بها مقاهي،
لكنها موغلة في الإنزواء.
- هي متوارية.
- فكرنا في إقامة هذا المشروع، بتنظيفها وتهيئتها،
نظرا لما تتوفر عليه من الأشجار المختلفة،
حيث توجد هنا جميع أنواع الفواكه، تقريبا.
يوجد هنا الرمان والتين والجوز الهندي والزعرور،
وهذه الأشجار هي الشيء الذي شجعنا كثيرا لإقامة هذا المشروع،
لأنها توفر الظل والمياه أيضا
الظل هو الجاذب الرئيسي، إضافة إلى المياه، وها هي عين قريبة توجد هنا
- هذا يعني أن الماء وافر
- الماء وافر والخضرة موجودة إلى جانب الظل،
هي ثلاثة عناصر مشجعة على إقامة المشروع،
أضف إلى هذا توافد الزوار على هذه المنطقة بشكل كبير
فنحن نحاول التعريف بهذه المنطقة لعلها تنمو وتزدهر
- كيف تقومون بالدعاية للمنطقة لجلب السواح،
وهل يأتي السواح، أم لا؟
- هناك إقبال والحمد لله،
وعندما يكون هناك إقبال، فهو كافٍ.
مع ذلك فلو أمكن الرقي بالمنطقة أكثر،
فستكون لها قيمة أكبر،
أما من ناحية الرواج فالكل يشتغل خلال هذين الشهرين،

والحمد لله، وكل شيء يتوقف على مستوى الإقبال .
- هل يأتي الأجانب أم لا؟
- هم قليلون، ونادرا ما يأتون،
قد لا يتجاوزون اثنين أو ثلاثاً، فهم نادرون جداً
- فماذا تتمنون
وماهي تطلعاتكم؟
- نتمنى الرقي لهذه المدينة بكاملها إن شاء الله،
لأنها بحاجة إلى أشياء كثيرة
وإذا شئنا الدخول في التفاصيل،
فسنجد أن ما ينقصها كثير جداً،
وينبغي أن تُعْطاها قيمتها، لأنها تستحق ذلك
فهي تتمتع بالإخضرار وبوفرة المياه، وبكثير من المؤهلات.
- لم يتم استغلالها كما يجب
- لم يُستغل نهائيا
هي تستحق أشياء كثيرة،
فلو قمنا بمقارنة هذه المدينة مع مدن أخرى
فسنجد مدناً لا تتوفر على المياه إطلاقا،
وتجد بها المساحات الخضراء والحدائق وكثيراً من الأشياء
بينما نحن هنا، نتوفر على المياه وعلى العديد من الأشياء
لكن الإهتمام منعدم.
- هل تشجع الشباب على إقامة مثل هذه المشاريع؟
- أكيد
فاستنادا إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "علّمُوا أولادَكُم التّجَارة، ولا تُعلّموهم الإجَارة"
فأي شخص يتوفر على دبلوم، أو إجازة،
فهذا لا يمنع من أن ينجز مشروعا خاصا به،
وعليه ألا ينتظر من الدولة أن تُشَغله أو توفر له وظيفة
فبإمكانك أن تقوم بمشروع بنفسك،
فالأفكار موجودة، وعلى الشخص أن يحاول المبادرة بفعل شيء ما،
وكما يقول المثل: (جسمك يستطيع أن يفعل كل شيء، عقلك هو الذي لا يستطيع).
فعليك أن تحاول إقناع عقلك بأنك قادر على فعل الشيء،
فسيكون بإمكانك فعله.
- على المرء أن يتشجع فقط.
- بالفعل، غامر أو غادر كما يقال."

خاتمـــــــة

الحدوشي بطريقة شاعرية:

تلك حكاية امرأة بشموخ زاوية الشيخ وعنفوان قبائل أيت أم البخت وأصداء جبال الأطلس المتوسط وأسرار أم الربيع الذي شهد ميلاد الحكاية ورتب في صفحات التاريخ أوراقا من فصول دوَّنها من حبر صلصاله تحكي أمجادها وتسطر بصدح النسور في العلياء شموخا لا ينكسر.

أحمد شرماض
21أكتوبر 2021